﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: 24 - 25]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعد الحُجَج والبراهينِ إعلانُ الكفرِ الصّريح، والكيدُ للدّاعي ونجاتُه منهم

بيّنَ النّظمُ الجليل أنّ إبراهيمَ ﷺ بعد أنْ فصّل لقومِه الأدّلةَ على وحدانيّة الله تعالى، وعلى صدقِ الرّسالة والبعث، وأمَرَهم بعبادة الله تعالى، وقرّعهم على عبادةِ الأوثان، أوردَ النّظمُ ما قاله قومُه له، وبيّن أنّهم لم يَجدوا جوابًا على كفرهم وعنادِهم إلّا اللّجوءَ إلى القوّة، كما هو شأنُ المغلوبِ بالحُجَج، فبنَوا له بُنيانًا وألقَوه في النّار، فأنجاه الله من كيدِهم، وجعلَها عليه بردًا وسلامًا، ثمّ أتبعَ ذلك بجوابِ إبراهيمَ ﷺ لقومِه بعد النّجاة من النّار مُقرّعًا لهم، وموبّخًا على عبادة الأوثان، ثمّ بيّن أنّ المودّةَ والاجتماعَ على عبادتها إنّما هو في الدّنيا لغرضِ مصالحِهم وتوادِّهم، فإنّ تلك المودّةَ تنقلبُ يومَ القيامة بُغضًا وحِقدًا وعَداوة، فيتبرّأُ بعضُهم من بعض[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرِّقُوهُ﴾: (حرق) أصلٌ يدلُّ على حَكِّ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ مَعَ حَرارَةٍ والْتِهاب[2]، والحَرَقُ: النّارُ، والحُرْقةُ: حَرارتها، والتحريقُ: تأْثيرها في الشَّيْءِ[3]، يقال: أحْرَقَ كذا فاحترقَ، والحريقُ: النّار،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 44، والمراغي، تفسير المراغي: 20/ 129.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرق).
(3) ابن منظور، اللسان: (حرق).

وقال تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ [الحج: 22]، وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: 68]، فحَرْقُ الشيء: إيقاعُ حرارةٍ في الشّيء من غير لهيب، كحَرْقِ الثَّوبِ بالدّقِّ، والإحراقُ: إيقاعُ نارٍ ذاتِ لهيبٍ في الشّيء، ومنه استُعيرَ: أحرقَني بلَوْمِه: إذا بالغَ في أذيّته بلَوْمٍ[1]، والمرادُ به في الآيةِ الكريمة: تحريقُهُ بالنّار[2].

2) ﴿مَّوَدَّةَ﴾: (ودّ - ودد) أصلٌ يدلُّ عَلَى مَحَبَّةٍ، ووَدِدْتُ أنَّ ذاكَ كانَ، إذا تَمَنَّيْتَهُ، أوَدُّ فيهما جَميعًا[3]، والوُدُّ: مَصْدَرُ المَوَدَّة، وهو الحُبُّ يَكونُ في جَميعِ مَداخِلِ الخَيْر؛ وهوَ مِنَ الأُمْنيَّة؛ قال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ﴾ [البقرة: 96]، أي: يَتَمَنَّى[4]، ويُستعملُ في كلّ واحدٍ من المعنيينِ على أنَّ التّمنّيَ يتضمّنُ معنى الوُدّ؛ لأنّ التّمنّيَ هو تَشهّي حصولِ ما تَوَدُّهُ، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحۡمَةً﴾ [الروم: 21]، وقوله: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: 96]، إشارةٌ إلى ما أوقعَ بينهم من الأُلْفة، وفي المودَّة التي تقتضي المحبّةَ المُجرّدة قولُه: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى: 23][5]، والمرادُ به في الآيةِ الكريمةِ التّوادُّ والمحبّةُ[6].

3) ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ﴾: (أوى) أصلٌ يدلّ على التَّجَمُّعِ، يُقالُ: أوَى الرَّجُلُ إلَى مَنْزِلِهِ وآوَى غَيْرَهُ أويًّا وإيواءً، قالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾ [المؤمنون: 50]، والمَأْوَى: مَكانُ كُلِّ شَيْءٍ يأوي إلَيْهِ لَيْلًا أوْ نَهارًا[7]، وأوَيْتُ مَنْزلي وإلى مَنْزِلي: عُدْتُ، وآوانا: أي ردَّنا إلى مأْوًى لَنا ولَمْ يَجْعَلْنا مُنْتَشرينَ كالبهائم، والمَأْوَى: المنزلُ[8]، وأوى إلى كذا: انضمّ إليه، قال ﷺ: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ [هود: 43]، وقال تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يوسف: 69]، أي: ضمّه إلى نفسِه[9]، ومعناه في الآية: أنّ النّار هي منزلُكم الَّذي تأوونَ إليه[10].

(1) الراغب، المفردات: (حرق).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 312.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ودّ).
(4) ابن منظور، اللسان: (ودد).
(5) الراغب، المفردات: (ودد).
(6) الخطيب، السراج المنير: 3/ 133.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوى).
(8) ابن منظور، اللسان: (أوا).
(9) الرّاغب، المفردات: (أوى).
(10) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 230.

4) ﴿نَّصِرِينَ﴾: (نصر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِه، ونَصَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدوِّهِمْ، يَنْصُرُهُمْ نَصْرًا[1]، والنَّصرُ: إعانةُ الْمَظْلومِ[2]، ونَصَرَهُ منه: نَجّاهُ وخَلَّصَهُ[3]، والنَّصْرُ والنُّصْرَةُ: العَوْنُ، قال تعالى: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: 250]، والتَّناصُرُ: التَّعاوُن، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥﴾ [الصافات: 25][4]، والمراد به في الآية الكريمة: الإنجاءُ والتّخليصُ والمنعُ من العذاب[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جوابُ قومِ إبراهيمَ له وتقريعُه لعبادتهم وعادقتهم ببعضهم

يُخبرُ النّظم الجليلُ عن قومِ إبراهيمَ ﷺ - بعدَ أنْ بيّن لهم إبراهيمُ الحُجَجَ والبراهين على دعوته - بأنّهم رجعوا معَه إلى أسلوب الغلَبة والقهر، وأعرضوا عن طريقِ الاحتجاج والمناظرة حينَ لم يكن لهم قدرةٌ على ردّ حُجَجه، فاختلفوا في قتلِه أوْ تحريقِه بالنّار، واتّفقوا آخرًا على تحريقِه، فأنجاه اللّه تعالى من نارهم بأنْ جعلَها عليه بردًا وسلامًا، وقد كان في ذلك الإنجاءِ دلالاتٌ واضحةٌ وعلاماتٌ ظاهرة، على عظيم قدرة اللّه، وبديع صُنعه؛ إذ أضرموا تلك النّارَ العظيمة، وألقَوْه فيها، ولم تُحرّقْه، ولا أثّرت فيه أثرًا، وبعدَ أنْ منّ اللّه تعالى على إبراهيمَ بالنّجاة من النّار، أقبلَ على قومه يُقرّعُهم في شأن دينهم، فقال: إنّما اتّخذتُمُ الأوثانَ للتّودُّد والتّواصُلِ فيما بينَكم لاجتماعِكم على عبادتها، وحفظًا لمودّتهم الدّنيويّة، وأنّهم يومَ القيامة يَجحَدُ بعضُهم بعضًا ويتلاعنون؛ لأنّ توادَّهم كان على غيرِ تقوى، ولن يكونَ لهم في ذلك اليومِ مَن يُخلّصهم من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(2) ابن منظور، اللسان: (نصر).
(3) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (نصر).
(4) الراغب، المفردات: (نصر).
(5) الخازن، لباب التأويل: 3/ 379.

عذاب الله تعالى وسوءِ المصير، والمقصودُ بيانُ أنّ هؤلاء المشركينَ لم يتّخذوا الآلهةَ لأنّهم يعتقدونَ صحّة ذلك على سبيل اليقين، بل اتّخذوها في الدّنيا آلهةً على سبيل التّوادّ والتّقليدِ والمُسايرةِ لغيرهم، وفي الآخرة تتحوّلُ تلك المودّةُ إلى عداوةٍ ومُقاطعةٍ ومُلاعنة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ في قوله: ﴿فَمَا كَانَ﴾:

تسرّعُ الكافرينَ بالجوابِ نكوصٌ على الأعقاب

عطفَ النّظم الجليل الجملةَ في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ بالفاءِ الدّالّة على التّفريع؛ لأنّ جوابَ قومِه مترتّبٌ ومتفرّعٌ عن قول إبراهيم عليه السلام في الآية: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾ [العنكبوت: 16][2]، كما أنّ جوابَهم هذا مسبّبٌ عن قوله، فعبّر عن ذلك بـ(الفاء) لما فيها من دلالة على السّببيّة مع التّرتيب والتّفريع؛ "لأنّ إبراهيم عليه السلام لمّا أتى ببيان الأصولِ الثلاثةِ وأقامَ البرهانَ عليه، بقي الأمرُ من جانبهم إمّا الإجابةُ أو الإتيانُ بما يصلح أنْ يكونَ جوابَه، فلم يأتوا إلا بقولهم: اقْتُلُوهُ أوْ حَرِّقوهُ"[3].

دلالةُ النفي بـ(ما):

استمرارُ الجحودِ إيذاءٌ بلا حدود

التَّعبيرُ بـ(ما)، فيه دلالةٌ على النَّفي والعموم؛ إذ من خصائصِ (ما) نفيُ الجملِ الاسميَّة والفعليَّة، ولذلك فهي تفيد توكيدَ النَّفي، فضلًا عن إفادتِه استمرارَه، أي: انتفاءُ جوابِهم مؤكّدٌ مُستمرٌّ لا ينفكّ عنهم.

دلالةُ نفي فعلِ الكون بصيغةِ الماضي:

شدّةُ الانحراف تعبيرٌ عن عظمةِ الخلاف

سلّطَ النّظمُ الجليل النّفيَ على فعلِ الكون في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ دونَ أن يقول: (ما جواب

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 312 - 313، والقنوجي، فتح البيان: 10/ 182 - 183، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 29.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 234.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 44.

قومه إلّا أن قالوا) للدّلالةِ على انتفاءِ الجواب عنهم انتفاءً بليغًا، أي: لم يكُنْ لهم جوابٌ من الأصل، وإقحامُ الكونِ الماضي بينَ أداة النفي ولفظ (الجواب) أفادَ تحقيقَ النّفي وتأكيدَه في الماضي واستمرارَه في الحاضر، وفيه دفْعٌ لتوهّمِ اقتصارِ النّفي على الحالِ دون المُضيّ والدّوام؛ وفي ذلك ترسيخٌ لجهلهم، وعنادهم.

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ بلفظِ ﴿جَوَابَ﴾:

الرّدُّ على البرهانِ بالتّهديد دليلُ إفلاسِ العنيد

عبّرَ النّظمُ الجليل عن ردِّ قوم إبراهيمَ على دعوتِه وحُجَجِه بلفظ (الجواب) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وهو وإنْ لم يكنْ في الحقيقةِ جوابًا؛ لأنّه لا يتعلّقُ بمقوله ولا بحُجَجِه وإلزاماتِه؛ بل سمّى الكلامَ المتضمّنَ للتهديد والوعيد (جوابًا)؛ لأنّه جاءَ على صورةِ الجوابِ عن الحُجَج، ففيه استعارةٌ تصريحيّةٌ، وفائدةُ التّعبيرِ عن ذلك بأنّه جوابٌ الدّلالةُ على أنّهم لا يملكونَ جوابًا حقيقيًّا، ولا ردًّا موضوعيًّا يَدفعون به حُجَجَ إبراهيمَ ﷺ، فبيّن أنّهم لم يكن لهم جوابٌ أصلًا سوى الكلامِ المهدِّد والمتوعِّد؛ ذلك أنّ السّاكتَ عن الجواب لا يُعلَمُ أنّه يَقدرُ على الجواب أم لا؟ لجوازِ أنْ يكون سكوتُه لعدم الالتفات أوْ عيًّا وحَصَرًا، وأمّا إذا أجابَ بجوابٍ فاسد عُلِم أنَّه قصدَ الجوابَ وما قدَر عليه، أوْ أنّه خرجَ مُخرَج كلامِ المتكبر[1].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ القوم مضافًا إلى الضّمير:

اجتماعُ كلمةِ المُعاندين على إيذاءِ المُرْسَلين

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ (قومه) في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ للدّلالة على أنّهم ذوو "قوّةٍ ونَجْدةٍ بحيث يُخشى شرُّهم، ويُتّقى أذاهم وضَرُّهم، لمّا أنكرَ عليهم ما أنكرَ"[2]، ويدلّ على أنّ القومَ كلّهم قد تواطَؤوا على هذا القول، وقد

(1) الخطيب، السراج المنير: 3/ 133.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 429.

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ القوم إلى الضّميرِ العائد إلى إبراهيم ﷺ؛ للدّلالةِ على شِدّة غُربتِه تعبيرًا عن صعوبةِ مُهمّة الرّسل؛ إذ إنّ أثقل ما يكونُ على النّفس أن يحاربَ المرْءَ أهلُه وقومُه.

دلالة الحصر في: ﴿إِلَّآ﴾:

حـصـرُهـم في الكلام انحصارٌ عن بلوغِ المَرام

عبّر النّظمُ الجليل بـ﴿إِلَّآ﴾ الدّالّة على الحصر في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ لنفي كلِّ قول يقالُ، وإثباتِ قولٍ واحد، فأفادتْ ﴿إِلَّآ﴾ إثباتَ قولٍ واحدٍ من سائرِ المقولاتِ المنفيّة، فأعرضوا بجوابهم هذا عن كلّ مقولةٍ منطقيّة ممكنٍ قولُها، وأجابوا بمقولةٍ تدلُّ على إفلاسِهم وانهزامهم[1]، والقصرُ إضافيّ؛ لأنّهم لم يكونوا مُقتصرينَ على هذا الجواب، فقد قالوا غيرَها من المقولات، ولكنّه حصرَ مقولتهم على ذلك للدّلالة على انتفاء الجوابِ المنطقيّ عنهم، وأفادَ الحصرُ الإضافيّ إجماعَهم على هذا القرار المُجحِف؛ إذ سلَّط الضوءَ عليه دونَ سائرِ الأقوال؛ لبيان أنَّه قرارٌ إجماعيٌّ وصلَ إلى درجةِ القطْعِ والحسم لديهم حتى إنَّه لم يبقَ لهم قولٌ غيرُه.

دلالةُ التعبيرِ بالمصدرِ المؤوّل:

الإصـــرارُ على الإيـذاء كاشفٌ لعميقِ العَداوة

عبّر النّظمُ الجليل بالمصدر المؤوّل المكوَّن من ﴿أَن﴾ المصدريّة والفعل الماضي في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ للدّلالة على صدورِ قولِهم ذلك، أي: كان قولُهم ذلك هو جوابَهم له، واستيعابُ المصدر المُؤَوَّل للدلالة الاسميّة والفعليّة معًا، يجعلُ معناه مُنتظمًا في مسارين: حركةُ المعنى في الزّمن، وهو الفعليّة، ومعنى المصدر في دلالتِه على أصلِ الحدث وحقيقتِه، فيجمعُ بين الحدوثِ والحدَث، والتعبيرُ به في قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ يدلّ على نسبةِ القول إليهم جميعًا بتمامِه، وتحقّقِ وقوعه منهم

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11124.

مُصرّحين به جهارًا ومصرّينَ عليه؛ إمعانًا في حقدهم على إبراهيم عليه السلام، واصرارِهم على الخلاصِ منه قتلًا أوْ تحريقًا.

سرّ إيثارِ التَّعبير بالفعلِ ماضيًا:

شـدّة الجحودِ والـقـسـوةُ في الانتقام

اصطفاءُ النّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ القولِ ماضيًا في المصدر المؤول: ﴿أَن قَالُواْ﴾ يدلُّ على تحقُّقِ وقوعِ القول منهم على سبيلِ القطع والجزمِ، ويشملُ كلَّ أنواع التَّعبير اللفظي، المباشر وغير المباشر، ففيه - فضلًا عن الإيجاز المناسبِ لبلاغة القرآن - الدلالةُ على التّصريح والمُجاهرة بكُفرهم وجحودِهم عن إصرارٍ وتعمُّدٍ دونَ مواربة، وأنّ جرأتَهم وشدّةَ عنادهم، قادَتْهم إلى الكبْر، والجُحود، والحقد، والقسوةِ في الانتقام.

إيثار التَّعبير بلفظ القتل أمرًا:

ديـدنُ الظّالمين قتلُ المُصلحين

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ (القتل) في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ للدّلالة على أنّهم أرادوا إزهاقَ روحِه، والقتلُ بالآلةِ الجارحةِ يُسبّب هدمَ بنيةِ الجسد هَدْمًا يتبعُهُ خروجُ الرّوح؛ لأنها لا تبقى في بنيةٍ غيرِ سليمةٍ، أمّا الموتُ فتخرجُ الروحُ أوّلًا، ثمَّ تُهدَمُ البنيةُ بتحلُّلِها في التّراب[1]، وسرُّ اختيار صيغةِ الأمر دلالتُها على الوجوب والجزم بتحقيق المراد، وتكشفُ الجملة ﴿ٱقْتُلُوهُ﴾ على وقوع التشاور في كيفيَّة التخلُّص منه، فطلبوا القتلَ والإيذاءَ الجسديَّ، وعبَّروا عنه بصيغة الغَيبة امتهانًا لمكانته بينهم، ولأنه لم يكن حاضرًا معهم، وأنهم قد دبَّروا ذلك سرًّا، وذلك ديدنُ الظّالمين مع المُصلحين.

دلالةُ العطفِ بالحرف ﴿أَوْ﴾:

الـتّـردّدُ في الوسيلة مفصحٌ عـن الـعـزم في الغيلة

عبّر النّظمُ الجليل بحرف العطف ﴿أَوْ﴾ الدّالّة على التّخيير والتّردّد بين أمرينِ في قوله: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ للدّلالة على أنّ قومه

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11125.

تردّدوا في شأنِه بين كيفيّات القتل وصورِه، فبعضُ قومه أشاروا بالقتل مباشرةً، وذلك يكونُ بآلةٍ جارحةٍ عادةً وفيها إيذاءٌ جسديٌّ لكنَّه محدودٌ ومؤقَّت، وبعضُهم أشارَ بتحريقه، ثمَّ اتفقوا جميعًا على التحريق[1]، أو أنّ ﴿أَوْ﴾ بمعنى (بل) فتدلّ على الإبطال، أي: اقتلوهُ بل حرّقوه، وقد عدلوا إلى ذلك؛ لأنّ التّحريق أشدّ إيلامًا وأسوأ وسائلِ القتل، وهذا التردُّدُ في كيفيَّة التخلُّص منه كاشفٌ عن اتفاقِ كلمتِهم على الخلاص منه، لكنَّهم مختلفونَ في الآليَّة والطريقة، ممّا يكشف عن اتّخاذهم قرارَ الإعدام أصلًا، لكنَّهم يتخيَّرون الطريقةَ التي تَشفي عليلَ صدروِهم وتَروي غليلَ أفئدتِهم.

دلالة التَّعبير بصيغة التضعيف في ﴿حَرِّقُوهُ﴾:

التّحريقُ أشدُّ إيلامًا من الإحراق

آثر النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة التّضعيف للفعل الثلاثي المجرد دون (أحرقوه) في قوله: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ لأنّ التّحريقَ يدلّ على المبالغةِ في فعلِ الإحراق، والمبالغةُ هنا تشيرُ إلى شدّة التّحريقِ بحيث إنّ النّار تحرقُ كلَّ جسمِه إحراقًا كاملًا، وهذا التكثيرُ في الفعل يظهَرُ بجمعِ حطبٍ كثيرٍ وإيقادِ نارٍ فيه، وإلقائه وسطَ تلك النار المتأجِّجة، وليس مجرّدَ عرضه على أيّةِ نارٍ وإشعالِه فيها كما يُفعَلُ بالمهرطِقِ العاديِّ والسّاحرِ المحتال، فكان اختيارُ هذه الصيغة في القتل كاشفةً عن مدى حِقدهم عليه بعد أنْ كسَّرَ أصنامَهم، فأرادوا عذابًا يُطفئُ حقدَهم، فلم يجدوا إلا النار المُحرّقة وسيلةً لإيذائِه وارتياحِهم منه.

بلاغة تقديم المسند على المسند إليه:

العجزُ عن المناظرة داعٍ للقتل والمُعارضة

في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ جرى تقديمُ المسند ﴿جَوَابَ﴾ على المسند إليه ﴿أَن قَالُواْ﴾؛ فوقعَ خبرُ ﴿كَانَ﴾ متقدِّمًا على اسمِها؛ للدلالة على اختصاصِ الجوابِ بالقول

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 27.

المذكور؛ فلم يصدر منهم جوابٌ عن حُجَجه وإلزاماته البرهانيَّة لهم في عبادتِهم الأوثانَ والكواكبَ من دون الله تعالى، وإنَّما تمخَّضَ الجوابُ عن استكبارٍ وظُلْم ومكرٍ وإيذاء، فكانَ التقديمُ مع أسلوبِ القصر متناغمًا في تصويرِ عدم صدورِ جوابٍ حقيقيٍّ عنهم سوى كلامِ التهديد والوعيد والإفناء.

سرُّ العطف بالفاء في ﴿فَأَنجَىٰهُ﴾:

تعجيلُ الإنجاء بعدَ الإلقاء

افتتحَ النّظم الجليل الجملةَ بـ(الفاء الفصيحة) في قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، التي أفصحَتْ عن جملةٍ محذوفة، والجملةُ المحذوفة هي المعطوفُ عليها، والتّقدير: فألقَوه في النّار فأنجاهُ الله تعالى منها[1]، كما أنّها تشيرُ إلى سرعةٍ في الإنجاء، والسّرعة فيه هنا مطلوبةٌ، لكون النّار لا يتأخّر حتفُ مَن أُلقي فيها عادةً، فكان التّعجيلُ بإنقاذِه قرارًا إلهيًّا حاسِمًا، كما تحملُ (الفاء) المتسبِّبة عن إلقائه في النار أنَّ أمرَ الإنجاء هيّنٌ، لا يحتاج من المولى تعالى إلى تعَبٍ أو نصب، بل إلى مجرَّد أمرِ النار بعدمِ الإحراق.

سرّ إيثار التَّعبير بـ(أنجاه) دون (نجّاه):

لا فعلَ يعظُمُ إنجازُه عندَ الله تعالى

آثر النّظمُ الكريم التَّعبير بالفعل المتعدّي بالهمزة (أنجاه) دون الفعل المتعدي بالتضعيف (نجّاه) في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لأنّ تعديةَ لفعل بالهمزة هنا دالّةٌ على سرعة الإنجاز ويُسره، فإنّ التّضعيفَ يدلّ على التّكثير، ويشيرُ إلى أعمال كثيرة للتّنجية المتدرجة مع صعوبةٍ في الإنجاز، وهذا يشعرُ بالبطء، والمقامُ يقتضي التّعجيلَ، فآثر لذلك التَّعبيرَ بالفعل المتعدّي بالهمز، ولم يحتجْ إلى تكثيرٍ ولا إلى تدريجٍ وهما مدلولا صيغة التّفعيل[2]، وبهذا تتحقَّقُ المقابلة الصيغيّة بين ﴿حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ﴾؛ فالأولى دالّةٌ على أنَّ فعلهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 36.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 421.

استغرقَ وقتًا طويلًا لتهيئة مكان التحريق، وجمع الأخشاب وإيقاد النار، والثانية دالّةٌ على إنجازٍ هيّنٍ يسير، تمثّلَ بمجرّد أمرِ النار بعدمِ مسِّه بسوءٍ معَ وجود لهبِها المتطاير في أرجاء المكان.

علّة مجيء لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مُظْهَرًا:

التصريحُ بالعلَم كافٍ في إدراكِ العظمة

أظهرَ النّظم الجليل لفظَ الجلالة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ دون الإضمار؛ وذلك لبيانِ عظمةِ الإنجاء، وبيان كونِه مُعجزًا لا يقعُ في وسع أحدٍ إلّا الله تعالى، أي: أنجاه الله تعالى بما له من كمالِ العظمة[1]، والتّعظيمُ وقع هنا في أبلغ موقع؛ إذ إنّ التّعجيلَ بالإنقاذ من النّار لا يقدرُ عليه إلا إلهٌ عظيم الشأن، بالغُ القدرة.

معنى ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾:

تعيينُ محلِّ النجاة توضيحٌ للفعل العظيم

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وهي هنا دالّةٌ على الابتداء المكانيّ، أي: بدأ وقوعُ ذلك الإنجاءِ من تلك النّار، أي: إنّه كان فيها وقد بلغَها ودخلها، وهذا التحديدُ لمحلِّ النجاة كاشفٌ عن قدرة عظيمة؛ فلم ينجُ منهم قبلَ الدخول إلى النار، بل دخلَها ورأوْه عند الدخول، واطمأنوا إلى احتراقِه بالكامل، لكنَّ القدرة العظيمة أدركَتْه في النار وأنجته منها، حتى يكونَ ذلك الإنجاءُ آيةً ومعجزةً ظاهرةً على صدق نبوّتِه.

سرّ ورودِ لفظِ ﴿ٱلنَّارِ﴾ معرفًا:

لا نجاةَ من النار إلا بالتمسُّك بالله تعالى

عرّفَ النّظم الجليل لفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ بالألف واللّام في قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الدّالّة على العهد، إشارةً إلى النّار المعهودة التي طلبوا إحراقه بها، وفي هذا الإخبارِ دلالةٌ على أنَّ نجاة إبراهيم من النار نجاةٌ لكلِّ مَن سار على طريقته في التوحيد بالنَّجاة من عذاب النار، وأنَّ مَن حاد عن دعوته وأسِّ قضيّته فإنَّ مصيره إلى النار.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 421.

دلالة الحرف ﴿إِنَّ﴾:

الإنجاءُ من النّار الموقَدةِ برهانٌ لا يُنكر

أكّد النّظم الجليل جملةَ الفاصلة بتصديرها بحرفِ التّأكيد في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تقويةً للخبر، وتأكيدًا لمضمونِ الخطاب، وكونُ ذلك الإنجاءِ آيةً بليغةً لا يُنكرُهُ إلّا مُكابرٌ معاند، وفُصِلت الجملةُ عمّا قبلَها استئنافًا نحويًّا أوْ بيانيًّا؛ إظهارًا لذلك الإنجاء الخارج عن حدودِ طاقةِ الممكنات، والدّاخلِ في قدرة اللّه تعالى وحدَه لعلَّهم يرعَوونَ عندَ رؤيةِ تلك الآيةِ العجيبة.

سرُّ مجيءِ حرفِ الظّرف ﴿فِي﴾:

في الإنجاءِ برهانٌ عظيم وبيانٌ قويم

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ الدالِّ على الظرفيَّة المجازيَّة في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ البيانَ والعلاماتِ الدّالّةَ على الحقّ كامنةٌ داخلَ ذلك الإنجاء، وكأنَّ الإنجاءَ صار وعاءً للآيات، ينظر إليها كلُّ مَن نظر إلى ذلك الوعاءِ بعينِ البصيرةِ والإدراك الصّادق، ومعنى كونها فيه أنّها ظاهرةٌ وُجِدت مع وجوده، فكلُّ ذي بصيرةٍ يرى أنّ النّجاة من تلك النّار آيةٌ بليغةٌ على صِدْقِ إبراهيمَ وعلى عظيمِ قُدرةِ اللّه تعالى.

بلاغة الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإنجاءُ من النّار عالي الرّتبة في الإعجاز

عبّر النّظم الجليل باسمِ الإشارة الموضوعِ للمشارِ إليه البعيد عن الحسّ، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ إشارةً لإنجاءِ إبراهيمَ من النّار، أي: إنّ في إنجاءِ إبراهيمَ من النّار لآياتٍ[1]، والدّلالةُ على البُعد فيه المأخوذةُ من (اللّام)؛ تدلّ على البُعْد المعنويِّ والرُّتْبيّ، المرادِ به علوُّ مكانةِ ذلك الإنجاء وعظيمُ برهانه، فهو بعيدُ الشّأن والرُّتبةِ في كونه آيةً بليغةً دالّةً على عظمةِ اللّه تعالى.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 36.

دلالةُ التَّعبير بلفظِ (الآيات):

الإنجاءُ وما فيه دلائلُ بيّنة على صدق إبراهيم وألوهيّة الله تعالى

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ (آيات) دون (دليل أو برهان) في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دلالةً على كونِ الإنجاء دليلًا واضحًا لغرابته ونُدْرته، وإعجازًا بيّنًا عجيبًا على وحدانيّة الله تعالى وربوبيّته، وتصرُّفِه في الأعيان والمعاني بحفظِه تعالى نبيَّه من حرِّ النار ولهيبها، فهي برهانٌ قاطعٌ على صدق إبراهيم[1]، بخلافِ (الدليل) الذي يكون قاطعًا وغيرَ قاطع، و(البرهانِ) الذي يكون مثبتًا للمطلوب من دون غرابةٍ فيه، وإنّما عبّر عنها بصيغة الجمع؛ لأنّها ليست آيةً واحدة، بل تتضمّنُ آياتٍ كثيرةً تدلّ على قدرة الله: من انتفاء الحرّق، وتحوّلِها إلى بردٍ وسلام، وكرامةِ رسوله بخروجه سالمًا، وتصديقِ وعده، وإهانةِ عدوه، وأنَّ المخلوقات كلَّها مُسخّرةٌ لقدرة الله تعالى[2].

دلالةُ اللّام في: ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

الآياتُ خاصّةٌ بالمؤمنينَ ولأجلِهم

عبّرَ النّظم الجليل بحرف الجرّ (اللّام) الدالِّ على العلَّة والغرض في قوله جلّ شأنه: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ للدّلالةِ على أنّ الآياتِ خاصّةٌ بالّذين يريدونَ الإيمانَ ويسعَونَ إليه برغبةٍ وتفكيرٍ سليمٍ دون مَن سواهم، إذ غيرُهم مشغولونَ بالشّهوات، غافلونَ عن إدراك تلكم الآيات الظّاهرة، التي سُرعان ما يتوهَّمون أنَّها سحرٌ أوْ دجَل، ويُبادرونَ إلى التكذيب.

سرُّ مجيء الفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ مضارعًا:

إيمانُ المؤمنينَ يترقّى في مدارجِ السّالكين

آثرَ النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع عن الإيمان في قوله تعالى: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ للدّلالة على تجدُّدِ إيمانهم، حتّى صارَ لهم خُلُقًا وسجيَّةً حيثُ إنَّهم في كلِّ لحظة يُجدِّدون التّرقّي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 421.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 235.

في مراتبه[1]، وفي ذلك تعريضٌ وتهديدٌ لمشركي مكّة، الَّذين يرونَ الآيات والمعجزات النبوية، ولا يُبادرونَ إلى التصديق بها، والسرُّ في ذلك أنَّهم تخلَّوا عن الرغبةِ بالإيمان والسَّعي إليه؛ انشغالًا بملذّات الحياة، وصدودًا عن طريق النَّجاة.

دلالة التَّعبير بالصفة: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

تـخـصـيـصُ المنتفعينَ بالآيات مـن الـدروسِ النّافعات

عبّر النّظم الجليلُ عن الإيمان بالجُملة الوصفيَّة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ تحديدًا للمنتفعين بتلك الآيات، وأمّا غيرُهم فهم في غَفلة ساهون[2]، ودلالةً على أنَّ إيمانهم مُتمكّنٌ منهم وهي من مُقوّمات قوميَّتهم، وتعريضًا بقوم إبراهيم ﷺ بأن تلك الآيات لم يُصدّقوا بها لكونهم قومًا مكابرين، وأنّ الإيمانَ لم يخالطْ عقولَهم[3]، وفي تحديدِ المُنتفعينَ بتلك الآيات تطمينٌ وتسليةٌ للنبيِّ الكريم ﷺ بأنَّ قوم إبراهيم قد رأوا الآياتِ الباهرة ولم ينتفعوا بها؛ فلا تيأس من دعوتِهم لأنَّ تلك الآياتِ مختصّةٌ بالرّاغبين في الإيمان الباحثينَ عنه.

بلاغةُ حذفِ متعلّق الفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

إنـجـاءُ إبراهيم آيةٌ لكلّ مصدّق

حذفَ النّظم الجليل متعلّق فعل الإيمان في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فلَم يُبيّن بأيّ شيءٍ يؤمنون، وذلك للدّلالة على مطلق الباحثين عن الإيمان بالنظر، والتصديق بالبراهين الحقَّة والأدلّةِ القاطعة، ويَحْتمِلُ أنْ يُرادَ بالفعل اللّزوم فلا يكون له متعلّقٌ، ويكون المعنى: إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يوجَد منهم الإيمانُ والتصديق عندَما يرونَ الآياتِ الظاهرةَ والبراهينَ الواضحة، التي لا تحتمل الإنكارَ والتشكيك.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 422.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 235.

توجيه المتشابه اللفظيّ:

الإنجاءُ من النار صنيعٌ عجيب

قال تعالى في إنجاء نوحٍ ﷺ وأصحابِ السّفينة ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: 15] بإفراد الآيات، وقال هاهنا ﴿لَّأٓيَٰتٍ﴾ بالجمع؛ "لأنَّ الإنجاءَ بالسَّفينة شيءٌ تتّسعُ له العقولُ، فلم يكن فيه من الآيةِ إلا بسببِ إعلامِ الله إيّاه بالاتّخاذ وقتَ الحاجة، فإنَّه لولاه لما اتّخذَهُ لعدم حصول علْمِه بما في الغيب، وبسبب أنَّ الله قد صانَ السّفينةَ عن المُهلكات كالرياح العاصفة، وأمّا الإنجاء من النار فعجيبٌ، فقال: فيه آياتٌ"[1].

آيــةُ السّفينة بفعل الطّوفان، وآيةُ النارِ ذاتيّة

يُلاحظُ أنّه قال في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ [العنكبوت: 15]، وقال هاهنا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾؛ "لأنَّ السَّفينة ما صارت آيةً في نفسها، ولولا خلقُ اللهِ الطّوفان لبقي فعلُ نوحٍ سَفَهًا، فالله تعالى جعلَ السَّفينةَ بعدَ وجوده آيةً، وأمّا تبريدُ النار فهو في نفسِه آيةٌ؛ إذا وُجِدت لا تحتاجُ إلى أمرٍ آخرَ، كخلق الطّوفان حتى يصيرَ آيةً"[2].

إعجاز النّار آنيٌّ للمشاهدين، دائميٌّ للمؤمنين

وقالَ تعالى في خاتمةِ الآيةِ المتشابهةِ نفسِها ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: 15] وقال هاهنا ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ فخصَّ الآيات هاهنا بالمؤمنين، وأطلقَها في الأولى؛ لأنّ السّفينة بقيتْ أعوامًا حتى مرّ عليها الناسُ، ورأوْها فحصل العلمُ بها لكلِّ أحد، وأمّا تبريدُ النار فإنَّه لم يَدُمْ وانتهى في وقته، فكان الإيمانُ به للخالفينَ بطريق الإيمان بالغيبِ والتصديق به لا بالمشاهدة[3].

جــزاءُ المقتدينَ بإبـراهيـم ﷺ النـجاةُ مـن نـارِ العذاب

ثمّ إنّ الله تعالى لمّا برّد النّارَ على إبراهيم ﷺ بسبب اهتدائه في نفسِه وهدايته لأبناءِ جنسه، وكان قد قرَّر تعالى بأنَّ للمؤمنينَ أسوةً حسنةً في إبراهيم ﷺ، جعلَ للمؤمنين بشارةً بأنَّ الله يبرّدُ عليهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 45.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 45.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 45.

النار يومَ القيامة ويجعلُها سلامًا بأنْ يُنجيَهم منها فلا يدخلوها، والمعنى: إنّ في ذلك التبريدِ والإنجاءِ لآياتٍ لقومٍ يُؤمِنون[1].

دلالةُ الواو في ﴿وَقَالَ﴾:

الـشّـروع في الدّعوةِ وتسفيهُ الـشّـركِ بعدَ النّجاة

افتتحَ النّظمُ الجليل الجملةَ بـ(الواو الاستئنافيّة) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾، والجملةُ مُستأنفةٌ[2]، سيقتْ للشّروع في بيان ما قال إبراهيمُ لقومِه بعدَ النّجاة؛ إذ لا شكَّ أنْ يَعقِبَ النجاةَ تهكُّمٌ بهم وعتابٌ شديدٌ، وتقريعٌ على ما هم عليه من التكذيبِ والإنكار؛ إذ رؤيةُ تلك الآية العجيبةِ والخروجِ من النّار، جعلَهم يفقدونَ الاتّزانَ ويتيهونَ في دروب الوهْم، فيُصيخون السَّمعَ ولا يستطيعونَ الردَّ والجواب، بعد أنْ لم يكن لهم جوابٌ إلا الأمرَ بالإحراقِ والقتل.

بلاغةُ أسلوبِ القصر:

العـكـوفُ على الأوثـان حـرصٌ عـلى الـتـآلـف بينهم والحنان

حصَرَ النّظمُ الجليل عبادتَهم الأوثان على الغاية التي كانوا يَرجونها من عبادتِهم لها، وذلك في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾، والحصرُ وقعَ على المفعول لأجلِه، أي: ما اتّخذتم أوثانًا إلّا لأجلِ مودّةِ بعضِكم بعضًا، ووجهُ الحصر أنّه ظهرَ لهم الحقُّ بصدْقِ الرّسول، فلم يبقَ لهم سببٌ لعبادةِ الأوثان إلّا مودّةَ بعضِهم بعضًا[3]، وأفادَ الحصرُ تأكيدَ المعنى وتقويةَ المضمون، فانحصرتْ عبادتُهم لها على كونِها إرضاءً لنفوسِهم وعلاقاتِهم الاجتماعية، وإبقاءً للتآلفِ والحنانِ فيما بينهم، وفضَّلوا ذلك على الحقّ واتّباعِه، واختارَ النظمُ أسلوبَ الحصر مقابلَ حصرِهم السّابق الدالِّ على اجتماع كلمتِهم على

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 45.
(2) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1747.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 235.

قتلِه وتحريقِه بالنار، الدالِّ بالاستلزام الظّاهر على رغبتِهم بالعكوفِ على معبوداتِهم الباطلة، مبيِّنًا لهم أنَّ رغبتَهم بتحريقِه وعكوفَهم على الباطل كان منشؤُه الحرصَ على إدامةِ علاقاتهم، وتفضيلها على الحقِّ المبين.

إيثارُ التَّعبير بلفظ الاتّخاذ:

أعظمُ الغيِّ الاجتهادُ في عبادة مصطَنع لا يستحقُّ العبادة

آثر النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ (الاتّخاذ) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ للدّلالة على أنّهم يعلمونَ أنّها ليستْ بآلهة، فهم الَّذين اتّخذوها كذلك، وقد آثر التَّعبيرَ بصيغة (الافتعال) للدّلالة على المبالغة، أي: أنّهم اصطَنعوها وتكلّفوا اتّخاذَها آلهةً[1]، وفيه إشارةٌ إلى انتفاءِ استحقاقِها العبادة، لأنّها متّخذةٌ لذلك وليست حقيقيَّة، وأفادَ الفعلُ الماضي الدلالةَ على أنَّ ذلك الاتّخاذ صارَ قديمًا فيهم، ومتأصِّلًا حتى آلَ بهم الأمرُ إلى ثبوتِ ذلك الاعتقادِ بشكلٍ راسخٍ وعميق.

معنى الحرف ﴿مِّن﴾:

رتبةُ الأوثان دونَ رتبةِ الإلهِ الحقّ

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ الدالّة على الابتداء، أي: ابتدأتْ رتبةُ الأوثان من رتبةٍ أعلى ما تكونُ فإنّها دونَ رتبةِ الإله الحقّ، كما أنّه يتضمّنُ انتفاءَ صفةِ العلوّ والعظمةِ الرتبيّة عنها، فـ﴿مِّن﴾ صِلةٌ لتأكيدِ نفي الاتّخاذ عن جانب الله بالكليّة، أي: لا اتّخاذَ يقع منك البتّة.

دلالة التعبير بـ﴿دُونِ ٱللَّهِ﴾:

الإلـهُ الحـقّ لا يبلغُ أحدٌ رُتبتَه

عبّر النّظم الجليل بالظّرف ﴿دُونِ﴾ الدّالّ على أدنى مكانٍ من الشيءِ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ وقد أُضيف إلى لفظ الجلالة؛ للإشارة إلى عظمة الله وعلوّ شأنه، فكلُّ شيءٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 422.

تحتَ سُلطانِه وقهره[1]، وفيه أيضًا دلالةٌ على أنّ كلَّ معبودٍ غيرَ الله تعالى فإنّه كائنٌ في رتبةٍ دونيّةٍ لا يَستحقّ العبادة، فالإلهُ المعبود يجبُ أنْ يكون أعلى كلِّ شيءٍ في الرّتبة، ومن ثمّ فلا تساويَ بوجهٍ بينَ معبوداتهم الباطلةِ وبينَ الله سبحانه، ونلمحُ في معنى ﴿دُونِ﴾ استخفافًا وتهكُّمًا بعقولهم، فهم فضلًا عن اتِّخاذِهم معبوداتٍ واعتقادِهم ألوهيّتَها مع أنَّها متّخذةٌ منهم، إلا أنَّها كانت دون الله تعالى في الرُّتبة والمكانةِ بالاعتراف منهم، وهذا ما لا يليقُ بأدْنى العُقلاء فِعلُه.

اختيار التَّعبير بلفظ ﴿أَوْثَٰنًا﴾:

كـثرةُ الأوثـان تتضمّنُ دليلَ البُطلان

آثرَ النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ (الأوثان) جمْعًا في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ للإشارة إلى أنّها كثيرةٌ، وكثرتُها منافيةٌ لرُتبة الإلهيّة[2]، إذ رتبةُ الإله الحقّ تقتضي التّوحيدَ والتنزُّهَ عن الشُّركاء والأنداد، ويشيرُ التَّعبير بالأوثان إلى مادّةِ صُنْعِها، وأنّها تماثيلُ مصنوعةٌ من حجارةٍ وحديدٍ ونُحاسٍ وفضّةٍ، وكلُّها مخلوقاتٌ جامدةٌ وعاجزةٌ.

سرُّ إيثار المفعول لأجله: ﴿مَّوَدَّةَ﴾:

المـودّةُ دالّـةٌ عـلى الـحُـبّ مـعَ الائـتـلافِ والتّواصُل

آثرَ النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظِ (المودّة) دونَ سواها في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾؛ وذلك لما فيها من دلالةٍ على التّواصل والائتلاف مع الحبّ وتمنّي تحقيقِ الخير فيما بينَهم، أي: إنّكم اتّخذتُم هذه الأصنامَ آلهةً لتتوادّوا بينكم، فيحبُّ بعضُكم بعضًا وتتواصلونَ فيما بينكم، وكلّ هذا من الخير الَّذي تُريدونَ الحصولَ عليه من اتّخاذكم إيّاها آلهة[3]، أوْ تكونُ

(1) الخطيب، السراج المنير: 3/ 133.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 422 - 423.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 36.

المودّةُ بينَ الأوثان وبينَ عبَدَتِها؛ إذ رَأَوْها مزيّنةً بجواهرَ فودّوها فاتّخذوها آلهةً، وفيه تعريضٌ بهم بأنّهم كانوا قليلي العقل، غلبتْ الجسميّةُ عليهم فلم يتّسعْ عقلُهم لمعبودٍ ليس كمثله شيءٌ[1]، وفي هذا التعبيرِ ما يكشفُ عن علّة الاتخاذ لتلك التماثيل، بعدَ أنْ أقام لهم الحجّة العقلية القاطعةَ على وحدانية الله تعالى وتنزُّهِه عن الشُّركاء، لكنهم فضَّلوا حمايةَ التواصُلِ الاجتماعيِّ بينهم على اتِّباع الحقيقة، فمالوا إلى قرار تحريقِه؛ حفظًا للنسيجِ المجتمعيِّ من التهدُّم حالةَ اتّباعه وصدودِ بعضٍ منهم عنه، فلم يكن ذلك الاتخاذُ قائمًا على برهانٍ صحيحٍ وعقلٍ صافٍ، بل حرصًا على عواطفَ غيرِ صحيحة.

دلالةُ الظرفيّة في قوله: ﴿بَيْنِكُمْ﴾:

لا غـرضَ لهم سِـوى حـفْـظِ التّواصُل بينَهم

عبّر النّظمُ الجليل بالظّرف (بين) في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ للدّلالةِ على أنّ الودّ والحبّ قد وقعَ بينهم، فلا يبتغونَ المفارقةَ عن بعضِهم لما بينَهم من موافقةٍ في السّيرة والطّريقة[2]، فليس غرضُهم الحقَّ ومعرفةَ الإله الحقّ الّذي يستحقّ التّوحيد، بل عبادتُهم محضُ مراعاةٍ لمشاعرِ الوُدِّ بينهم، وفي تشخيص محلّ المودّة المكانيّ تأشيرٌ دقيقٌ على تفضيلِهم علاقاتِهم بعضِهم ببعضٍ على علاقاتِهم الحقيقيَّةِ بخالقِهم ومُبدعِهم الحكيم.

توجيه القراءات في ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ وبلاغتها:

براعـة الاتـسـاع والإضـــافـــة في الـــقـــراءات القرآنية

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويْسٌ برفع ﴿مَّوَدَّةُ﴾ مِنْ غَيْرِ تَنْوينٍ، وخَفْضِ ﴿بَيْنِكُمْ﴾، وكذا قرأ حَمْزَةُ وحَفْصٌ ورَوْحٌ إلّا أنَّهُمْ نَصَبوا ﴿مَّوَدَّةَ﴾، وقرأ الباقون بِنَصْبِها مُنَوَّنَةً: ﴿مَّوَدَّةً﴾، ونَصْبِ ﴿بَيْنَكُمْ﴾[3]، فحجّة من رَفَع وأضاف: أنه جعل (ما) في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 46.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 46.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 343.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم﴾ اسم (إنَّ)، وأضمر (هاء) مع ﴿ٱتَّخَذْتُم﴾ تعود على (ما)، وجعل ﴿مَّوَدَّةُ﴾ خبر (إنَّ)، والتقدير: (وقال إن الذين اتخذتموهم أوثانًا مودةً بينكم)، فعدّى ﴿ٱتَّخَذْتُم﴾ إلى مفعولين، على إضمار ما يجب له، فتكون المودة هي ما اتَّخذوه أوثانًا، على الاتساع، وتحقيقه: (إن الذين اتخذتموهم أوثانًا ذوو مودة بينكم)، وحجة من نصب وأضاف، أو لم يُضِف: أنه جعل (ما) كافّة لعمل (إنَّ)، فلم يحتج إلى إضمارها، وجعل (اتخذ) متعدّيًا إلى مفعول واحد، وهو (الأوثان)، ونصب ﴿مَّوَدَّةَ﴾، على أنه مفعول من أجله، أي: (اتخذتم الأوثان للمودة)، والإضافة على الاتساع، والتنوين على الأصل، ونصب ﴿بَيْنَكُمْ﴾ على الظرف، أو على أنه صفة لـ: ﴿مَّوَدَّةَ﴾[1]، فمن بلاغة القراءات هنا جمعها في أسلوب بديع بين السبب والمُسبِّب.

سرُّ ورودِ الحرف ﴿فِى﴾:

تفضيلُ الدنيا على الآخرةِ عادةُ الضالّين

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿فِى﴾ الدّالّ على الظّرفيّة المجازيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ للدّلالةِ على أنّ مدى حبّهم كائنٌ في الحياة الدّنيا، أمّا ما وراءَها فلا علْمَ لهم به؛ لأنّ عبادتَهم عن هوىً لا عن علْمٍ ودراية، وكأنَّ الحياة الدنيا قد صارتْ وعاءً لمودّتهم، وبما أنَّها فانيةٌ وقصيرةٌ فإنَّ مودّتَهم قصيرةٌ وفانية، وفي ذلك استخفافٌ آخرُ بهم لتفضيلِهم متاعَ الدُّنيا الفانيةِ على نعيمِ الآخرةِ الباقية، وفي إتباعِ الظّرف الزمانيِّ للظرفِ المكانيِّ تحقيقُ تفاعلٍ لهؤلاءِ العابدينَ بمحدوديّةِ المكان والزّمان؛ فهم يَحرِصونَ على مودّةٍ ضيّقةٍ في المكانِ والزّمان دونَ إقامةِ مودّةٍ حقيقيّةٍ بالمتنزِّه عن المكان والزّمان.

(1) مكّي، الكشف: 2/ 178.

دلالة التقييد بالوصف الزماني:

دنيويّةُ الضالّين باعثةٌ على محبَّةٍ ضيّقة

قيّد النّظمُ الجليلُ المودّةَ بوصفٍ زمانيّ متكوّنٍ من جارٍّ ومجرور، والتقدير: (مودةً بينكم كائنةً في الحياة الدّنيا) وذلك في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ تقييدًا لزمان هذه المحبّة، فهو يبيّن أنّها تكونُ بينهم في الحياة الدّنيا الفانيةِ فحسب، أمّا في الآخرة فإنّها تنقطعُ وتزولُ، واشتمل الوصفُ الزمانيُّ على وصفٍ لتلك الحياة، بأنّها ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، وعندما يردُ هذا الوصفُ في السّياق القرآنيّ فالمرادُ به تصويرُ استغراقِ الإنسان في هذه الحياةِ القريبةِ ذاتِ المنزلةِ القليلة، وعدمِ اهتمامه بما بعدَها، وتصوير اغترارِه بأهوائِها وشهواتِها، ظنًّا منه بأنَّها هي الحياةُ المطلقةُ، ولا حياةَ حقّةً فُضِّلَى بعدها، ويدلُّ على ذلك وصفُها بكونها متاعَ الغُرور، وأنّ الَّذي يغترُّ بها هالك[1].

بيانُ المراد من العطف بـ: ﴿ثُمَّ﴾:

الودُّ القائم على باطلٍ تعقبُه عداوةٌ وتباغُض

عطف النّظم الجليل ما يفعلونه عند الحسابِ يومَ القيامة في قوله: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ على شأنِهم مع آلهتِهم في الحياة الدّنيا في قوله: ﴿ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ إشارةً إلى أنّ تلك المودّةَ المؤسَّسةَ على مبدأٍ باطلٍ لا يُراعي حقوقَ الله عليهم تنقلبُ إلى عداءٍ وتخاصُم؛ لأنّه تفضيلٌ لعلاقاتهم الدنيويَّة القاصرةِ القائمةِ على مصالحَ ضيّقةٍ على علاقاتِهم بخالقِهم العظيم المبنيَّة على ثوابتَ مُحكمةٍ لا تخشى في تطبيقها لومَ لائم، وإنّما عطفَ بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدّالّ على التّراخي والبُعد إشارةً إلى عظيم ذلك اليوم، كما أنّ طولَ الزّمان في ﴿ثُمَّ﴾ يدلّ على أنّه جعلَ في الحياة أمدًا يُمكنهم فيه توقّي ذلك اليوم[2].

(1) أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن، ص: 349 - 350.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 423 - 424.

سرُّ التّنصيص على ذكر ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

سوء عاقبة المودّة المؤسّسة على باطل في الدّنيا

قيّد النّظمُ الجليل أنّ كفرَهم ببعضٍ وتلاعُنَهم كائنانِ يومَ القيامة في قوله: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ دونَ أنْ يقول: (ثمّ يكفر بعضُكم ببعض)؛ تنبيهًا على سوءِ عاقبةِ المودّة التي كانت بينَهم، كما أنّه يدعوهم ويُنبّهُهم إلى إزالةِ الغُرور والغفلة، ليَعلموا أنَّ اللَّذّاتِ العاجلةَ لا عِبرةَ بها إنْ أعقبَتْها ندامةٌ آجلة[1]، ونلمحُ في تخصيص ظرف الزمان بـ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ دون (الحياة الآخرة) ليكونَ مقابلًا لظرف الزَّمان ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ إشارةً إلى أنّ الحياة الحقيقيةَ تبدأ في يوم قيام الأمواتِ للحساب والجزاء، وأنَّ هذه الحياةَ مهما طالت فإنَّ هنالك موتًا ونهايةً، بخلاف تلك الحياة التي يقومُ فيها النّاسُ لربِّ العالمين، لتبدأ حياتُهم الحقيقية الباقية من ذلك اليوم المخصوص، فإمّا جنّةٌ دائمةٌ وإمّا نارٌ باقية، وفي ذكر ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بيانٌ لمحطِّ ما يُنكرونه وأسِّ ما يَجحدونه من إنكارِ البعث والرُّجوع للحساب، فيفضِّلون علاقاتهم ومودّاتهم القاصرةَ على علاقاتِهم باللّه تعالى.

مغزى التّعبير بالمضارع ﴿يَكۡفُرُ﴾:

التّباغض والتلاعُنُ متجدّدٌ ومُستمرّ

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغة الفعل المضارع عن (الكفر) والجحود في قوله: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ للدّلالة على التَّبَرُّؤِ بينَهم في الآخرة[2]، وأنّه تبرّؤٌ مُتجدّدٌ ومُستمرٌّ لا يتوقّفُ في عرَصات القيامة وأهوالِها وأحوالِها، وذلك لأنّ كلَّ واحدٍ منهم يتبرّأ، فيكونُ الحدثُ متجدّدًا ومتكرّرًا، ونلمحُ في اختيار مادّة (الكفر) لطيفةً عميقةً؛ إذ كانوا يَحرِصونَ على مودَّتهم ويكفرونَ باللّه خالقِهم، فكانتِ النتيجة أنَّهم يكفرونَ ببعضهم وينكرونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 237.
(2) ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ص: 287.

معرفتَهم وعلاقاتِهم، والجزاءُ من جنسِ العمل، ويريدونَ الإيمانَ، وأنَّى لهم؟.

مفهوم (البعضيّة):

كـلّ واحـدٍ يُنكر أخاه ويتبرّأ مِن عبادتِه

عبّر النّظم الجليل بلفظ (بعض) في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ للدّلالة على أنّ كلّ واحدٍ منهم يُنكِر مودّة أخيهِ وقومِه، ويتبرّأ من كلّ أحدٍ منهم، ويلعنُ الأتباعُ القادة، ويلعنُ القادةُ الأتباعَ، والمقصدُ أنّ كلّهم يُنكرونَ عبادةَ الأوثان[1]، فالتّعبيرُ بالبعضيّة يدلّ على وقوعِ الفعل من كلّ فردٍ منهم بخصوصِه إزاءَ الأفراد كلِّهم، وذلك يومُ التناكر والتخاصُم بينهم دونَ مراعاةٍ منهم لمودَّتِهم ومحبَّتِهم الزائفةِ المبنيَّة على مصالحَ ضيِّقةٍ وآنيَّةٍ.

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِبَعْضٍ﴾:

الكفرانُ ملتصِقٌ بـكـلّ الأفـــراد والخُلّدن

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ وهو هنا بمعنى الإلصاق والتعدية، وذلك للدّلالة على أنّ وقوعَ الكفر يكونُ بكلّ فردٍ منهم، وأنّ الكفر والإنكار ملتصِقٌ بكلّ فرد منهم ألصقَه به فردٌ آخر، فتشير (الباء) على وقوع الفعل بالأفراد لا بالنّظر إلى المجموع، وهذا يدلّ على شدّة الجحودِ بينهم يومَ القيامة وكثرته، وعلى أنَّه آلَ بهم الأمر إلى تقاطعٍ عنيفٍ وتشاجُرٍ كبير بعدَ مودّةٍ ومحبَّةٍ ضيقة، كما أفاد تعديةُ الفعل بـ(الباء) إلى تحديدِ محلِّ الكفران؛ فإنْ كان في الدنيا مُتعلِّقًا باللّه ورسله وحِرصًا على محبَّةٍ بشريّة أو انجذابًا لصنمٍ زائف؛ فهنالك يكونُ محلُّ الكفران أولئك البشرَ الّذين أطاعوهم ولا يملكونَ لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، وتلك الأوثانَ العاجزةَ عن نُصرتهم وإنجائِهم من النار.

(1) الخطيب، السراج المنير: 3/ 134.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَيَلْعَنُ﴾:

مُنتهى التخاصُم تعقيبُ الكفرانِ بالتلاعُن

عطفَ النّظمُ الجليل الجملةَ الفعليّةَ المشتملةَ على اللّعنِ على الجملةِ الفعليَّة المتضمِّنة للكُفر في قوله جلّ شأنه: ﴿يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾؛ للتناسُبِ بين المتعاطفين خبرًا وللجمعِ بين الإنكار والجُحود وبينَ الإبعادِ والتّنافُر، وهذا يدلّ على شِدّة التّباغُض بينهم في تلك الدّار، وبهذا يتحقّقُ التقابلُ والانسجامُ بين العكوفِ على عبادة الأصنام والحرصِ على المودَّة فيما بينهم وبينَ الكُفر واللّعن؛ فهم كفروا بمعبوداتهم وتلاعنوا فيما بينهم.

دلالةُ التّعبير باللّعْن صيغةً وتعلُّقًا:

عاقبةُ المودّة الدّنيويّةِ التنافرُ والتقاطُع

آثرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغة (اللّعن) مضارعًا في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾؛ للدّلالة على أنَّ اللّعنَ مُتبادَلٌ بينهم على سبيل التجدُّد والاستمرار، وكأنَّ دأبَهم في النار هو التخاطبُ بالتلاعن والإبعاد والطّرد، ممّا يدلُّ على شدَّة النّفور والقسوة التي أخلفَتْ تلك المودّةَ الدنيويَّة الزائلة، ودلَّ تعلُّقُ اللّعن بالمفعول على أنّ كلّ واحدٍ منهم يريدُ أنْ يُبعِدَ صاحبَه باللّعن عنه، ولكنّهم لا يتباعدونَ، بل هم مُجتمعون في النّار كما كانوا مجتمعينَ في الدّنيا على عبادةِ الأوثان[1]، ويدلّ ذلك على شدّةِ التّنافُرِ بينهم، وهذه موعِظةٌ تحذّرهم بأنَّ هذه المودّة الحاصلة بينكم في الدّنيا يعقبُها تنافرٌ شديدٌ.

دلالة العطف في ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾:

تقريع إبراهيم لقومه بمآلهم يوم القيامة

عطف النّظمُ الجليلُ الجملةَ الاسميَّةَ الدالّةَ على الثبوت والدّوام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ على الجملة الفعليَّة الدالَّة على التجدُّد والحدوث ﴿ٱتَّخَذۡتُم﴾؛ لأنّها من مقول إبراهيمَ ﷺ، فهي في محلِّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 46.

نصبِ مقولِ القول[1]؛ والغرضُ من العطفِ الجمعُ بينَ المسبَّب والسّبب؛ إذ الاتخاذُ للأوثان حدوثًا كان سببًا لدخولِ النّار دوامًا، وفائدةُ ذكرِ المأوى بعدَ ذكرِ اللّعن الدّلالةُ على أنّ التّباعد بينهم لن يقعَ ذلك اليومَ، بل هم مُجتمعونَ في العذاب كما كانوا مُجتمعينَ في عبادتهم الأوثان ومودّتِهم إيّاها[2]، بقي أنَّ تعريفَ طرفَي الجملة الاسميّة دالٌّ على الحصر، فلم يكن لهم مأوىً يلجؤونَ إليه سوى النار يستعرونَ فيها.

سرّ اختيارِ صيغة (المأوى):

الاجتماعُ على الضّلالة سببٌ للاجتماع في المأوى

آثرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغةِ (المأوى) الدالّةِ على مكان السُّكنى والمكوث في قوله: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ للدّلالة على منزلِهم الذي يَستقرّونَ فيه، ومكانِهم الَّذي يأوونَ إليه[3]، فكما أنّهم يتجمّعونَ في عبادتهم للأوثان، فإنّ النّار تجمعُهم هناك معَ انتفاءِ المودّة بينهم، وفي التعبير استخفافٌ وتهكُّمٌ بهم؛ إذ المأوى هو المكانُ الذي يلجأ إليه الإنسانُ للاحتماء به، فلم يكن لهم ملجأٌ إلا النارَ يكتوونَ بلهيبها، وكان الجزاءُ من جنس العمل، إذ قرارُهم بتحريق إبراهيمَ كانت عاقبتُه المكوثَ واللُّجوءَ إلى النار.

عود الضمير في: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ﴾:

النّارُ مَأوى العابدينَ والمعبودينَ معًا

أضافَ النّظمُ الجليل لفظ (المأوى) إلى ضمير المخاطبينَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ والمرادُ به العابدونَ والمعبودونَ جميعًا[4]، للدّلالة على أنّهم مجتمعونَ في النّار، واجتماعُ العابدِ بمعبودِه في النار مُنتهى الذلّ والخيبةِ والخُسران.

دلالةُ عطفِ الجملةِ الاسميَّة:

الاحتراسُ دافعٌ للتوهُّم مزيلٌ للظّنون

عطفَ النّظمُ الجليل الجملةَ الاسميّةَ الدالّةَ على الدّوام والثّبوت

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 327.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 46.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 230.
(4) الخازن، لباب التأويل: 3/ 379.

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ على الجُملةِ الاسميّة قبلها[1]، والمرادُ منها بيانُ حالهم يوم القيامة على التّفصيل، فالنّار في الآخرة هي مأواهم ولا ناصر لهم يُخرجهم منها كما أخرج الله تعالى إبراهيمَ من النّار التي ألقيتموه فيها[2]، ولذا فإنَّ فائدةَ عطفِ الجملةِ المنفيَّة على الجملة المثبتةِ؛ الاحتراسُ مِن وهمِ مَن يعتقدُ أنَّ بقاءهم في النار لا يَنفي وجودَ ناصر لهم ومعينٍ مستقبلًا يُخرجهم منها، فدفعَ ذلك التوهُّمَ وأزالَ ذلك الظنَّ بنفي النّاصرِ والمُعينِ لهم.

دلالة نفي النّكرة بـ(ما):

نفيُ جنسِ النّصير مع الاستمرار للانتفاء

نفى النّظمُ الجليل جنس النّاصرِ عنهم يومَ القيامة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ نفيًا دالًّا على الاستغراق بـ(ما) الدالّ على العموم؛ إذ من خصائص (ما) نفيُ الجمل الاسميّة والفعليَّة، وهي آكدُ في النفي وأوسعُ استعمالًا، وبإيراد النّكرة في حيّز النّفي، وإدخالِ حرف الجرّ الزّائد ﴿مِّن﴾ الدالّ على الاستغراق والشمول - والغرضُ من ذلك التّرهيب بتأكيدِ انتفاء النّصير انتفاءً قطعيًّا شاملًا لكلّ نصير صغُر شأنُه أوْ كبُرَ، والنفيُ بـ(ما) هنا يفيدُ أيضًا استمرارَ النفي، أي: انتفاءُ وجود النّصير مستمرٌّ لا ينفكّ عنهم.

فائدةُ تقديمِ الخبرِ ﴿لَكُم﴾:

شدّةُ التّقريع بنفي النّصير على وجهِ الاختصاص

عبّر النّظم الجليل بتقديمِ الخبر وهو شبهُ الجملة ﴿لَكُم﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ للدّلالة على انتفاءِ النّاصرين عنهم على وجْهِ الخصوص، والمراد من هذا التّخصيصِ المبالغةُ في ترهيبهم؛ إذ إنّ يوم القيامة ينتفي النّاصرُ عن كلّ الكافرين وليس عنهم خاصّة.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 427.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 46.

دلالة الحرف ﴿مِّن﴾:

كمالُ انتفاءِ النّصير باستغراقِه وشمولِه

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ الزّائد ﴿مِّن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّصِرِينَ﴾ للدّلالةِ على استغراق النّفي وشمولِه على سبيل التوكيدِ والتقرير؛ لأنّها مزيدةٌ داخلةٌ على نكرةٍ في سياق النّفي، والمرادُ نفيُ جنس النّاصر عنهم، أي: لا ناصرَ لكم أصلًا يَحميكم منها[1]، وذلك أبلغُ في التّعبير عن الخيبة والخذلان.

بلاغةُ التّعبير بصيغة الجمع:

سلبُ الناصر عن جميعِ الآحاد

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بصيغة الجمعِ في قوله جلّ شأنه: ﴿نَّصِرِينَ﴾ دون أن يقول: (وما لكم من ناصر)؛ وذلك لمجيئه في مقابلة ضميرِ المخاطبينَ بصيغةِ الجمع ﴿لَكُم﴾، فيقتضي التوزيعَ على الآحاد، أي: لا ناصر لكلّ واحد منكم أصلًا[2].

حذفُ متعلّق قوله: ﴿نَّصِرِينَ﴾:

الإطلاقُ متناسبٌ مع العموم

حذفَ النّظمُ الجليل المتعلّق بالنّاصرينَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّصِرِينَ﴾ وذلك للعلْم به من السّياق، أي: ليس لكم منقذٌ يُنقِذُكم من عذابِ الله تعالى[3]، فحذفَهُ طلبًا للإيجاز وإطلاقًا لجنسِ النّاصر، ولكيفيّةِ نصْره.

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيّ:

اعترافُهم بأنَّ الأوثان هي الشُّفعاء أغنى عن ذكر لفظ الوليّ

قال تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [العنكبوت: 22] فذكر لفظ (الوليّ)، ولم يذكره هاهنا، وتوجيه ذلك أنّ المراد بالوليِّ: الشّفيعُ، يعني: ليس لكم شافعٌ ولا نصيرٌ دافِع، وهاهنا لمّا كان الخطاب قد دخلَ فيه الأوثان، وكانوا معترفينَ أنهم جميعًا ليس لهم شافع؛ لأنهم كانوا يدَّعون أنَّ آلهتهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 237.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 463.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 21/ 396.

هي شفعاؤُهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا﴾ [يونس: 18] فلم ينفِ عنهم الشّفيعَ لعدم الحاجة إلى نفيه، وأما في العنكبوت فكانَ الكلامُ معَهم وهُم كانوا يدَّعون أنَّ لأنفسِهم شُفعاءَ فنفاهم[1].

مَن لم يكُنِ الله ناصرَهُ فليس له ناصِرٌ

قال تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: 22] فأوردَه على معنى الاستثناء، والمعنى: ليس لهم غيرُ الله من وليٍّ ولا ناصر، وقال هاهنا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ من غير استثناءٍ، وتأويلُ ذلك أنّ الكلامَ هناك على أنَّهم في الدُّنيا، فقال لهم في الدنيا: لا تظنّوا أنّكم تُعجزون الله فما لكم أحدٌ ينصرُكم إنْ تبتم غيرَ الله تعالى، والكلامُ هنا في يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ وعدمُ النّاصر عامٌّ؛ لأنَّ التوبة في ذلك اليوم لا تُقبَلُ فسواءٌ تابوا أوْ لم يتوبوا لا ينصرهم الله، ولا ناصرَ لهم غيرُه، فلا ناصرَ لهم مُطلقا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(حرِّقوه)، و(اصلوه):

والـصّـليُ إيقاع الـشّيء بـالنّار، والتحريقُ أعمُّ منه

أصلُ الصَّلْي الإيقادُ بالنار، ويقال: صَلِيَ بالنار وبكذا، أي: بلي بها، واصْطَلَى بها، وصَلَيْتُ الشاةَ: شويتها، وصَلَى النارَ: دخلَ فيها، وأصْلاها غيرَهُ، قال: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النساء: 30][3]، وصَلى اللَّحْمَ يَصْليهِ صَلْيًا: شَواهُ، أوْ ألقاهُ في النّارِ للإحْراقِ[4]، والحاصل أن الصَّلْيَ إيرادُ الشيء على النار، وأمّا التحريق فهو أعمُّ، ويشملُ إيرادَ نار ذاتِ لهيبٍ على الشيء، ومنه استُعير: أحرقَني بلومِه: إذا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 46 - 47.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 47.
(3) الراغب، المفردات: (صلا).
(4) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (صلى).

بالغ في أذيّته بلَوْم[1]، وإيرادَ الشّيءِ على النار، والتّحريقُ المذكور في الآية من هذا القبيل؛ لأنهم أضرموا نارًا وألقَوه فيها، فقد أوردوه على النّار ليحترقَ بها ويتفحّمَ، وهنا دلالةٌ أخرى يفترقُ فيها الصَّليُ عن التحريق؛ إذ الصّلْيُ تعريضٌ للشيء على النار بغيةَ شَوْيِه، والتحريقُ إيرادُه بغيةَ تفحُّمِه.

(أنجاه)، و(أنقذه):

التّخليصُ من خطرٍ شديد أوْ مُحدِقٍ نجاةٌ، ومن وَرْطةٍ مّا إنقاذٌ

الإنقاذ يَدُلُّ عَلَى اسْتِخْلاصِ شَيْءٍ[2]، والتَّخْليصِ من وَرْطَةٍ[3]، أمّا الإنجاء فهو يَدُلُّ على الذَّهابِ والانْكِشافِ مِنَ الْمَكانِ[4]، والنّجاء: السُّرعةُ والخلاصُ من خطر، فهو خلوصٌ بصعوبةٍ من خطرٍ مُحدقٍ، أوْ عذابٍ، أوْ غرقٍ، أوْ كربٍ[5]، وفي الآية عبّر بالإنجاءِ لشدّةِ الخطرِ المُحيط بمَن أُلقي في النّار الحارقة.

الوثن والصنم:

الصّنم جثّة مصوّرة، والوثن ما جُعِل شريكًا لله تعالى عن ذلك

اختلفَ اللغويّون في الفرق بين (الوثن والصّنم)؛ جاء في لسان العرب: الوَثَنُ: كُلُّ ما له جُثَّةٌ معمولةٌ مِن جواهِرِ الأرض أو من الخشبِ والحجارةِ كصورةِ الآدَميِّ تُعمَلُ وتُنصَبُ فتُعْبَدُ، والصَّنَمُ الصّورةُ بلا جُثَّةٍ[6]، فجعل الوثن جثّةً والصّنمَ صورةً، وجاء في المفردات: الصَّنَمُ: جُثَّةٌ متّخذةٌ من فضّة، أوْ نحاس، أوْ خشب، كانوا يعبدونَها مُتقرّبين به إلى الله تعالى، وجمعُه: أصْنامٌ، قال الله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: 74]، وقال بعضُ الحكماء: كلُّ ما عُبِد من دون الله، بل كلُّ ما يشغلُ عن الله تعالى يقالُ له: صَنَمٌ[7]، فمنهم مَن سوّى بينهما.

(1) الراغب، المفردات: (حرق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقذ).
(3) الراغب، المفردات: (نقذ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نجو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نجو).
(6) ابن منظور، اللسان: (وثن).
(7) الراغب، المفردات: (صنم).

وقال في المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: "ويترجّح لديّ أنّ الصَّنَم مُصوّر؛ فهذا أدْعَى إلى توهُّم سِرٍّ فيه، ويرجّح أنّه جثّة منصوبة، أمّا الوثنُ فإنّه يُلْحَظُ فيه التّكثير، ويرجّحُ أنّ المعتبرَ فيه أنّه شريكٌ أوْ ثانٍ، أي: فيه دلالةٌ على تعدّد المعبود، فملحظُ الوثن أنّه شريكٌ، وملحظُ الصّنم أنّه جثّةٌ مصوّرة منصوبة، فيكون الوثنُ أعمَّ من الصّنم"[1]، كما أنَّ (الوثن) يشيرُ إلى الإقامةِ في المكان والثباتِ على الشّيء، وفي الآية بيَّن إبراهيم ﷺ لهم أنّهم إنَّما اتّخذوا الأوثان من دون الله يعبدونَها حرصًا على المودَّة بينهم وعدمِ قطعِ العلاقات الاجتماعيّة المترتبةِ على نبذِ الأوثان وتخصيصِ العبادةِ بالله وحدَه، فاختارَ الأوثانَ دونَ الأصنام والتماثيل لما في (الوثن) من معنى الإقامة عليها والاستمرارِ على عبادتها، وذلك ينسجمُ مع لفظ (المودَّة) والرغبة في دوامِ التواصُل والإقامةِ على العهد الثابتِ القديمِ بينهم.

المأوى والمثوى:

المأوى مكانٌ يُتجمّع فيه، والمثوى مكانٌ يقامُ فيه طويلًا

المثوى كلمةٌ تَدُلُّ عَلَى الْإِقامَةِ[2] مع الاستقرار والثَّواءُ: طولُ المُقام، والمَثْوى: المَوْضِعُ الَّذي يُقام بِهِ، ومَثْوَى الرَّجُلِ: مَنْزِلُهُ[3]، أمّا المأوى فيدلّ على التَّجَمُّعِ، والمَأْوَى: مَكانُ كُلِّ شَيْءٍ يأوي إلَيْهِ لَيْلًا أوْ نَهارًا[4]، أوَيْتُ مَنْزلي وإلى مَنْزِلي: عُدْتُ، وآوانا: أي ردَّنا إلى مأْوىً لَنا ولَمْ يَجْعَلْنا مُنْتَشِرينَ كالبهائم، والمَأْوَى: المنزلُ[5]، وعبّر في الآية بالمأوى للدّلالة على أنّهم يتجمّعون في النّار مع الأوثان كما تجمّعوا في الدّنيا[6].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صنم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوي).
(3) ابن منظور، اللسان: (ثوا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوى).
(5) ابن منظور، اللسان: (أوا).
(6) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 230.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»